- ٤ -

في تاريخ صدر الإسلام

عندما ظهر الإسلام، لم يكن هناك طرف من أطراف الديانات القائمة يعترف بالآخر.. فاليهود لا يعترفون بأي من الأغيار.. والنصارى لا يعترفون باليهود.. والعلاقة بينهما علاقة الإنكار والنفي والاضطهاد.. ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣]..

بل لقد ساد هذا النفي للآخر، والاضطهاد له حتى داخل النصرانية ذاتها!..فالنصرانية الغربية ـ الرومانية.. الملكانية ـ مارست الإبادة للنصرانية الشرقية ـ اليعقوبية ...

ووحده جاء الإسلام، فسن السنة غير المسبوقة، في السماحة والاعتراف بكل الآخرين.. بل وتقدم صاعدًا على هذا الطريق، فجعل «الآخر» ـ اليهود والنصارى ـ جزءًا من «الذات» ـ أهل الكتاب، المتدينين بدين اللّه الواحد ـ وجعل يهود المدينة ـ منذ قيام دولته ـ جزءًا من الأمة الواحدة والرعية المتحدة.. بينهم البر المحض، والنصح والنصيحة والتناصر، دون الإثم..

ومع ذلك وبالرغم منه، ذهب اليهود العبرانيون ـ المفترض أنهم متدينون بدين توحيدي ـ إلى التحالف مع الوثنية الجاهلية التي تعبد الأصنام، وتنكر وترفض كل الديانات السماوية.. تحالف اليهود معها ضد الإسلام، الذي بلغ في التوحيد أرقى درجات التنزيه والتجريد، والذي فتح الأبواب الواسعة أمام التعاون على البر والتقوى بين سائر أبناء الديانات، مقررًا أن «لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم»..

ذهب اليهود العبرانيون هذا المذهب، فسعوا إلى مشركي قريش يؤلبونهم على حرب الإسلام ودولته الوليدة، قائلين لهم: «إننا سنكون معكم حتى نستأصله»!.. وسعوا إلى مشركي «غطفان» فدعوهم إلى الانضمام لهذا الحلف غير المقدس، وأغروهم بإعطائهم ثمار سنة كاملة من واحات خيبر ومزارعها وحدائقها إن هم دخلوا هذا الحلف ضد الإسلام والمسلمين!.

بل وبلغ اليهود ـ في سبيل جمع هذه الأطراف المتناقضة، ضد الإسلام والمسلمين ـ إلى الحد الذي خانوا فيه دينهم السماوي، عندما فضلوا الوثنية على الإسلام.. وذلك حين سألهم مشركو قريش:

ـ «يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد. أفديننا خير من دينه»؟

ـ فكانت إجابة اليهود: «بل دينكم خير من دينه، فأنتم أولى بالحق»!

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه «الخيانة الفكرية» ـ التي سبقوا بها «مكيافيلي» [١٤٦٩ ـ ١٥٢٧م]، وتفوقوا عليه ـ فقال:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾

[النساء: ٥١].

إنها صفحة من صفحات تاريخ التحالفات غير المقدسة ضد الإسلام وأمته ودولته.. تستطيع «الدراما» استدعاءه لتقول لحاضرنا الراهن، من خلال وقائعه وقوانين صراعاته: إن يهود العصر، الذين عضوا اليد الإسلامية التي تفردت بالإحسان إليهم، فتحالفوا مع جلاديهم، الذين اضطهدوهم واحتقروهم وأذلوهم طوال تاريخهم ضد الإسلام والمسلمين.. إن لهم ـ في هذه التحالفات غير المقدسة ـ تاريخًا.. وإن لهذا التاريخ عطاءً في الوعي وتحريك الطاقات تستطيع أن تقدمه الدراما التاريخية إلى واقعنا المعيش وثقافتنا المعاصرة..

* * *